

جمالية التراث دراسة فنية لزوايا معسكر وقضايا البعد الطوبونيمي

The aesthetics of heritage: an artistic study of camp angles and issues of the toponymic dimension

زررور فطيمة الزهرة¹، غيثري سيدي محمد²

¹ جامعة أبي بكر بلقايد . تلمسان- zorkanacutuy@yahoo.com

² جامعة أبي بكر بلقايد . تلمسان- ghitrism@gmail.com

تاريخ النشر: 2022-12-29

تاريخ القبول: 2022-11-22

تاريخ الارسال: 2022-11-03

ملخص: (لا يتجاوز 10 اسطر)	معلومات المقال
الدراسات الطوبونيمية هي من الدراسات الحديثة التي تتناول الأماكن والمواقع والآثار، وتقترب كثيرا بشكل منطقي ومعرفي من حقيقة تسمية هذه المواقع، مع الاقتراب من الجذور التاريخية لهذه التسمية، وقيمة هذه النعوت التي أطلقت على هذه الأماكن فالدراسة الطوبونيمية هي إحدى آليات البحث التاريخي والجغرافي العميقين بناء على معطيات التحليل. ولما كانت مدينة معسكر مدينة تاريخية تزخر بالكثير من المواقع، كان من الضروري أن تكشف البحوث الطوبونيمية عن جوانب كثيرة من أسماء الأماكن المتواجدة فيها مثل دراسة فنية لزوايا معسكر وقضايا البعد الطوبونيمي، وهذا لتأكيد الصلة بين المكان الجغرافي وخصوصيته التاريخية الضاربة في أعماق الزمن. وأيضا هذه المدينة محطة للعديد من الزوايا المنتمية للعديد من الطرق الصوفية.	تاريخ الارسال: 2020/...../..... تاريخ القبول: 2020/...../.....
	الكلمات المفتاحية: ✓ الدراسات الطوبونيمية ✓ البحث التاريخي ✓ زوايا معسكر ✓ المواقع والآثار ✓ الدراسات الحديثة
Abstract : (not more than 10 Lines)	Article info
Toponymic studies are one of the modern studies that deal with places, sites and monuments, and come close logically and cognitively to the fact of naming these sites, with approaching the historical roots of this name, and the value of these epithets that were given to these places. analysis data, and this is to confirm the link between the geographical place and its historical specificity in the depths of time. Also, this city is a station for many zawiyas belonging to many Sufi orders.	Received Accepted Keywords: ✓ Toponymic ✓ modern studies ✓ historical ✓ specificity ✓ zawiyas

المؤلف المرسل: زرقوق فطيمة الزهرة zargoug.fatima@univ-tlemcen.dz

1. مقدمة:

يسوقنا الحديث عن التراث الراشدي إلى طرح مجموعة من المفاهيم والقضايا ذات الصلة بما يحويه هذا التراث من قيم حضارية وفكرية لا تزال رغم عهود مضت شاهدة على التراث الذي لا يزال الكثير منه قائما منه لحد الآن، إلا ما تعرض للنسيان أو الإهمال، غير أن بعض الجهود سواء للذين لديهم خبرة بهذا التراث، أو من بعض الباحثين، أو من بعض المؤسسات الثقافية والدينية التي استجابت لنداء العقل وبدأت تعيد الاعتبار لهذا التراث وتعيد إحياءه، وخاصة التراث المادي التي لا تزال بعض آثاره قائمة من الزوايا والمدارس الدينية القديمة والمقامات التاريخية،

وفي ظل الدراسات الطوبونيمية الحديثة ازداد الاهتمام بهذا التراث الراشدي وتضافرت الجهود في عملية تصنيفه والتعريف به وتسجيله وتوثيقه تاريخيا وجغرافيا .

ومن المفروض قبل التطرق للمفهوم التاريخي للزوايا لا بد من التطرق إلى الجانب الجغرافي ومدي صلته بالأصل التاريخي ، فلهذا يجب إرجاع هذه الأسماء إلى أصولها وفق دراسة طوبونيمية، والتي تعتمد غالبا على مسميات ونعوت أسماء الزوايا ونسبتها إلى المكان والوقائع والأحداث والأشكال والأوصاف وأسماء النعوت التي اتصلت بها والقضايا التي اتصلت بها. وقد تركزت الدراسة الطوبونيمية للزوايا بمدينة معسكر للأسباب من أهمها، أهمية الدراسات اللغوية الطوبونيمية في الحفاظ على الوحدة الاجتماعية والثقافية للمجتمع من المنظور الديني، وأيضا أهمية الدراسات اللغوية الطوبونيمية في دعم الوحدة الترابية للأمة والمجتمع مع الضرورة الاستراتيجية إلى التأصيل اللغوي عبر إنشاء وتطوير خرائط طوبونيمية تفاعلية لمواقع هذه الزوايا، وكذلك ربط المسائل اللغوية و علاقتها بالتسميات والاحتكاكات اللغوية والجغرافية، كما تستدعي الحاجة إلى دراسة الأبعاد اللغوية في الاسامي والتسميات.

2. التاريخي والجغرافي للزوايا في الدلالة والمفهوم

كثيرة هي الأسئلة التي تُطرح في ظل المفاهيم القائمة بشأن تقييم التراث الصوفي ودراسته بما يحمله من أبعاد تاريخية التي ولا شك تفتح مجالا لأبعاد إنسانية واجتماعية في تمايزها الجغرافي الممتد على مدى عقود تاريخية وعلى مدى أركنة متباعدة ، ولهذا لو قمنا بدراسة للواقع التراثي الجزائري فيما يتعلق بالزوايا لوجدنا أن لها دورا مهما وكبيرا داخل المجتمعات الإسلامية، وهذا ما جعلها تظل مستمرة وتبقى صامدة إلى وقتنا هذا وإلى هذا الظرف العصيب من الزمن، ومع هذا الزمن أدت الزوايا وظائف شتى: التي من أهمها الوظيفة التربوية التهذيبية والتي تختص بتربية النفوس وتهذيبها ، وكذلك التربية الصوفية التي تتجلى في الارتقاء بالنفس والإعلاء من شأنها بالرياضة الروحية، ثم من وظائفها المتجلية لدى العم والخاص الوظيفة الدينية وهي في

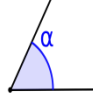
نظر القائمين على الزوايا أهم وظيفة وتمثل هذه الوظيفة في إحياء الشعائر الدينية والمحافظة عليها، قصد تصحيح العقيدة والإيمان الراسخ بقيمة هذا الدين والدعوة إلى التمسك بمبادئه الراسخة، كما للزوايا وظيفة تعليمية تتعلق بالحرص على تحفيظ القرآن الكريم، ومعرفة أحكامه بتجويده وترتيله، وتعليم علوم الشريعة، من فقه، وأصول الفقه، وعلوم القرآن والتفسير، وعلوم الحديث، وحتى العلوم العقلية كالمنطق والفلك، وعلوم اللغة كالنحو والصرف والبلاغة وغيرها.

والزاوية في كل ذلك سواء في التعليم أو في نقل الخبرة الروحية، أو الدور في الوظائف التي تختص في تعويض السلوك السلبي بالإيجابي، تسعى من خلال هذه الوظائف إلى إحكام السيطرة الباطنية للنفس الإنسانية، وتدريب المرید الحريص على إحياء الأذكار والأوراد وتلاوتها والقيام بإحياء السماع والحضرة الصوفية بشكل منظم، ومن خلال ذلك يتم ترسيخ الرموز الصوفية في المواظبين على الارتداد عليها. ومن ذلك كله جاء اهتمام الباحثين بدراسة التصوف وأسراره والوقوف على بواطنه الروحية، ودعا الكثير منهم بضرورة الاهتمام بمسألة الزاوية وما تمثله من قيمة اجتماعية وتاريخية ودينية وخاصة في الدراسات الحديثة والمعاصرة

2. 1 المفهوم اللغوي

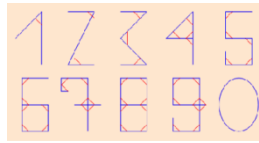
المتداول في اللغة العربية وفي المعاجم اللغوية المتخصصة أن المعنى اللغوي دوماً يسبق المعنى الاصطلاحي، وبناء على هذا فإن المفهوم اللغوي كما جاء في المعاجم العربية، أن الزاوية مأخوذة من الجذر اللغوي (زوي)، ومنه إلى زوي على وزن فعل، إلى أن تحولت الكلمة إلى الفعل (انزوى) على وزن انفعّل، فقد جاء في القاموس المحيط: "زواه زَيًا وزُويًا نَحَاه فانزوى وسره عنه طواه، والشيء جمعه وقبضه، والزاوية من البيت ركنه، جمع زوايا" (الفيزويادي، 1983، ج4 : ص340). أما صاحب لسان العرب يقول: "الزَيّ مصدره زوى الشيء يزويه زَيًا وزُويًا، فانزوى نَحَاه فانتحى، وزواه قبضه، وزويت الشيء جمعته وقبضته، وانزوى القوم بعضهم إلى بعض إذا تدانوا وتضاموا" (ابن منظور، 1997، ج3 ص217)، وعليه تحولت اللفظة لتدل على دالتين الدلالة الأولى العزلة والانعزال، لأن الزاوية هي مكان ينعزل فيه الإنسان عن الآخرين فيميل إلى السمو وعدم الاختلاط بالناس ويتفرد بنفسه في ركن منعزل، والدلالة الثانية في دنو الناس وانزوائهم إلى بعضهم البعض في الإخلاص والمحبة، وهذه الحال أطلقت على كل إنسان اعتزل الناس وركن في زاوية، إذا فالزاوية منحوتة من الركن المتواجد غالباً في البيوت وهي عادة مكان ضيق يركن إليه الإنسان للانزواء فيه والاعتزال قصد التقرب والتفرغ إلى الله بالتعبد وبالتالي فالتصوف في دلالته العامة انزواء بعد عن الناس في الخلوة. وتأكيداً لهذا المعنى جاء في المصباح المنير على أن زاوية البيت اسم فاعل من ذلك المصطلح، لأنها جمعت قطراً منه (الفيومى، 1996، ص136) ومنه فالزاوية في أصلها التي وضعت له في المعنى اللغوي هي ركن البناء، ومن ثمّ كان لها معنى الانزواء والانطواء والانعزال، وهذا ما يفسّر وجودها في الأماكن البعيدة المنعزلة عن المناطق العمرانية البعيدة عن الصخب والضجيج والتماس الهدوء .

ثم أخذت اللفظة المفهوم الهندسي الذي يطلق في هذا العلم على زوايا المثلث أو المربع وسائر الأشكال الهندسية التي تقوم على الخطوط المستقيمة باستثناء الدائرة التي ليس لها زوايا لعدم وجود الخطوط المستقيمة، هي عبارة عن مقدار المسافة أو الانفراج المحصور بين خطين مستقيمين مُتلاقين مع بعضهما البعض، حيث تُسمى نقطة التقاء الخطين وتقاطعهما برأس الزاوية (خالد حسين، ط4، ص12).

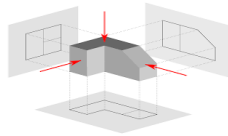


(انظر الشكل)

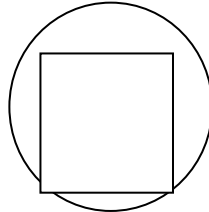
ومن هذا المقام انتقل شكل الأرقام عند العرب من واحد 1 إلى تسعة 9 بحسب الزوايا، فكل رقم يحسب بعدد الزوايا، فالواحد زاوية، واثنين زاويتين وهكذا... أما الصفر 0 فهو دائري لخلوه من الزوايا، وقد قام الخوارزمي بتصميم تلك الأرقام على أساس عدد الزوايا (الحادة أو القائمة) التي يضمها كل رقم، فالرقم واحد يتضمن زاوية واحدة، ورقم اثنان يتضمن زاويتين، والرقم ثلاثة يتضمن ثلاث زوايا - إلخ. أما الاختراع العبقري الذي أضافه المسلمون هو الرقم صفر الذي كان شكله دائرة ليس فيها أي زاوية، (عدد الزوايا صفر). (انظر الشكل)



ثم تم الانتقال من الشكل الهندسي للزاوية، الى شكلها البنائي المتواجد في المنازل والمساجد ليشكل زاوية معمارية لها دلالتها في ضم البيت، أي ضم جدرانه وتشكيل أركان منزوية داخل البيت، (انظر هذا الشكل في الوسط يشكل الزاوية المنعزلة).



ثم أخيرا شكلت الزوايا المربعة مكان الانعزال والانطواء، وشكلت الدائرة التحرر في دائرة الحضرة الإلهية (انظر الشكل)



أما الزاوية في شكلها المربع الموضوع للعبادة الروحية والقباب فوقها تمثل الدائرة أي الفراغ الدال على الحضرة، ثم أن للقباب دلالات روحية عند أهل التصوف في نظام بناءها ترمز إلى أن الإنسان لا بد له من التحلي عن العالم الأرضي والتوجه

نحو العالم السماوي، وهذا يوحي بتواضع المتصوف المؤمن وخضوعه لخالقه (انظر شكلها المعماري). وهذا ما أشير إليه على أنه تكوين التماثل الظاهر في الزخرفات المعمارية (عبد الصدوق إبراهيم، 2017، ص 120)،



2.2 المفهوم الاصطلاحي

أما اصطلاحاً فالزاوية فهي عبارة عن مكان معدّ للعبادة والارتقاء الروحي وتركبة النفس بالأوراد، وإيواء الواردين إليها واحتوائهم وتوفير المبيت والإطعام (حجي، 1988، ص 81).

ولكن ابتداء من القرن 6 هـ و 12 م ظهر نوع جديد من الزوايا ارتبط بالطرق الصوفية، وكانت عمارتها تجمع بين هندسة المسجد والمنزل في الوقت نفسه، فهي صغيرة الحجم قليلة النوافذ بسيطة من حيث الزخرفة توحى غالباً بالبساطة والهدوء، وفيها غرف لتحفيظ القرآن، وأخرى لتدريس علوم الدين، وأخرى لإقامة الصلاة والذكر، وأخرى للإطعام، وغرف للنوم، وأخرى للزائرين والضيوف وهي غالباً ما تكون خارج محيط الزاوية (عزوق، 2014، ص 13). ولقد ساهمت الزوايا كما يقول أبو القاسم سعد الله في ازدهار الحياة الثقافية من حيث الاستعداد العلمي والتربوي، (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: 1998 ج 1 ص 269).

3. مواقع الزوايا بالفضاء الراشدي :

الفضاء الراشدي العسكري كان مؤهلاً لوجود الانتماء الروحي والصوفي، وهي مدينة كغيرها من مدن الجزائر تعتبر حاضرة تاريخية ، تشكلت ملامح موقعها الجغرافي، وأخذت كسائر مدن الجزائر الصبغة الطوبونيمية التي غلبت عليها، فهي مدينة تقع في شمال غرب الجزائر وتحتل موقعا استراتيجيا مهما على الصعيد الاقتصادي والتجاري، وتتميز بسهولها ومرتفعاتها وتنوع غطاءها النباتي وتنوع محاصيلها وبثورة غابية مما يساعد على أن تكون موزعا للاستقرار بها، كما تتميز بمناخ معتدل، ومن سهولها سهول هبرة وسيق وسهل غريس ومن جبالها جبال بني شقران وجبل مناور.

ويعود الوجود البشري فيها إلى أكثر من سبعمائة ألف عام بالنظر إلى الاكتشافات الأثرية التي دلت على وجود إنسان باليكواو أي تغيف، كما عثر في منطقة مناور على بقايا عظمية تعود للفترة القديمة من تاريخ هذه المدينة، كما عاش فيها قبائل

بربرية كبقائل المور وزناتة وهوارة . كما تحوي المدينة بقايا من الوجود الروماني ومن المدن (أكواسيرانس) بوحنيفية، و(كاسترانوفا) المحمدية و(الأميلاريا) البنيان.

لمدينة مدينة معسكر حضور إبان الفتوحات الإسلامية، ومر عليها الحكم الرستمي والإدريسي والفاطمي والمرابطي والزيري إلى غاية الدولة العثمانية مع بداية القرن السادس عشر ميلادي العاشر الهجري، وأصبحت بهذا التاريخ عاصمة للإيالة الغربية من 1701 إلى غاية 1792 وعاشت المدينة عصرها الذهبي، والفترة العثمانية من أهم الفترات التاريخية عرفت فيها ازدهارا عمرانيا وتشدت بها الأبواب السبعة وفي هذه الفترة عرفت المدينة بناء العديد من المساجد في العهد الباي بن عثمان الكبير ومن أهمها الجامع الكبير ومسجد عين البيضاء ، وقد ذكر أبو القاسم سعد الله من أن معسكر كانت لها الخطوة السياسية والعلمية التي سبقت بها كلا من وهران ومستغانم خلال هذه الفترة من الحكم العثماني. وقد تحدث في كتابه أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر عن رحلة محمد الباي الكبير وعن جهود محمد بن عبد الكريم في تحقيق كتاب رحلة محمد الكبير الذي كتبه ابن هطال (سعد الله أبحاث وآراء ج 1، 1981 ص357).

معسكر مدينة من مدن الجزائر لها جغرافيتها المكانية وتاريخها الزماني، فهي تنفرد بتقاسيمها التاريخية ومشهدا الثقافي الذي يسجلها تراثها الحضاري العريق، فهي حاضرة علمية وقلعة للتراث.

والزوايا الواقعة بها هي في الغالب فروع تنتشر في بعض مدن الجزائر، ومن أهم فروع الزوايا المتواجدة بها الزاوية التجانية والعلوية والقادرية (العقي، 2002، ص175)، ونأخذ الزاوية التجانية مثلا على أنها من أهم الزوايا، فموقعها الأصلي بمدينة عين ماضي التابعة لمدينة الأغواط. وكثيرة الانتشار في المغرب الأقصى وبلاد السودان. (الأزمي، 2000: ص29)، ويعتبر سيدي أحمد التجاني الذي ولد سنة 1150 هجرية من شيوخها الأوائل الذين استطاعوا إرساء معالم هذه الطريقة في الجزائر وخارجها، فقد حفظ القرآن الكريم واشتغل بطلب علوم الشرع واللغة والتفسير، ثم اهتم بالإفتاء والتدريس بمسقط رأسه عين ماضي، ثم انتقل إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، والتي دخلها في السادس من ربيع الثاني 1213 للهجرة، يرافقه خليفته سيدي علي حرازم برادة، وقد ألف بهذا الشأن تأليفا يسرد فيه جميع ما تعلق بالشيخ وستوطن بها وأقام بها زاويته، ثم باشر في نشر الطريقة والإذن في الأوراد. وبقي بها حتى وفاته 1230 هجري الموافق 1815 ميلادي ودفن بها. (حرازم، 2013: ص24).

4. الموقع الجغرافي والطبيعة المكانية للزاوية

من أجل تعيين الفضاء المكاني للزاوية، لا بد كمن الإشارة إلى المسافة التي تشكلها الزاوية وإلى حدودها وإلى معمارها وهندستها، فمن الفضاء المكاني يمكن حصر البعد التاريخي الذي تشكله الزاوية والقائمين عليها منذ التأسيس الأول، فمثلا الزاوية التيجانية تقع مكانيا بمدينة عين ماضي، والتي تبعد عن مدينة الأغواط بحوالي 75 كلم ، فالمكان الذي تأسست فيه الزاوية في أرض مستوية تحيط بها جبال، وهي قريبة من كل من الأغواط وأفلو والجلفة، وهذه المناطق تعرف ببساطة الحياة والهدوء

والبعد عن متع الحياة والمدن الصاخبة، وأن صاحبه المؤسس الشيخ أحمد التيجاني رحل من مسقط رأسه عين ماضي ليرحل إلى فاس لتلقي العلم والتبحر في مسائل المعرفة، فاستطاع أن يستقي إلى جانب العلم تلقي فنون التربية الروحية والسلوك فالتقى بأقطاب التصوف وتعلم على أيديهم المعالم الأساسية في علم التصوف معرفة وذوقا، كما أنه اطلع على زوايا مدينة فاس وجالس شيوخها (بن شهرة، (د.ت. ص 26) ثم عاد إلى الجزائر واستقر بتلمسان مدة ثم رحل إلى مدينة البيض وخاصة بمدينة بوسمغون (حرازم، 2013: ص 25)، هذه المنطقة الأثرية التي تقع في ولاية البيض، وهي من المدن الأثرية القديمة التي تعود كما يؤكد علماء الآثار إلى عهد ما قبل التاريخ وذلك بناء على ما توصل إليه العلماء من حفريات ونقوش حجرية (الجيلالي، 1983: ج 3 ص 65)، وهذه المنطقة أي منطقة بوسمغون تنسب إلى شخصية إسلامية جزائرية وسطية تذهب الروايات على أنه أمازيغي، وقد أشاعت قيم التسامح في هذا الوسط الاجتماعي ونبت التنافر بين أفرادها، فهذه المنطقة كان لها الأثر في شخصية الشيخ أحمد التيجاني من خلال ما لقيه من أهلها في صفاء الروح ونقاء السريرة، فمكث بقصر بوسمغون ولازمه إلى أن عاد إلى مدينة فاس وأسس الزاوية التيجانية التي أصبح لها صيت كبير، وبمسقط رأسه بعين ماضي أسس الطريق التيجانية وكانت زاويته محط أنظار المريدين ونشرت الوعي الديني والتربية العلمية والروحية، ثم تولى الشيخ التيماسيني خلافة الزاوية بعد وفاة الشيخ أحمد التيجاني، وكان قد أمره شيخه أن يرجع إلى عين ماضي ويواصل خلافة الزاوية وبعد وفاة الخليفة التيماسيني خلفه أولاد الشيخ التيجاني واستمرت إلى يومنا هذا. (حرازم، 2013: ص 28).

يشير أبو القاسم سعد الله من أن الزوايا التي نشأت أكثرها خلال العهد العثماني، وقلة قليلة منها في الفترة الاستعمارية (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: 1998 ج 4، ص 262)، وهذا يجسد أن الفترة الخصبة في بناء الزوايا كان في العهد التركي، لذلك فالصورة الطوبونيمية للزاوية في تأسيسها أخذت العمارة الدينية التي انطبعت في العهد العثماني، وما أقيم في الفترة الاستعمارية سوى تقليد للنمط العمراني التركي، وأخذت الزاوية تصميمها وفق التقسيمات الاجتماعية لطبقة تصنيفها، فبيت خاصة بالشيخ وبيت خاصة بالمقدم، ومكان فسيح يتشكل من غرف كبيرة خاصة بالمريدين، قاعة لقراءة القرآن وقاعة أخرى لتعليم العلوم وأخرى خاصة بالعبادة والصلاة، أما قاعة الإيواء والإطعام غالبا ما تكون خارج الحقل المعرفي للزاوية، وهناك مكان فسيح خاص بالضيوف وزائري الزاوية. كما تحوي الزاوية خارجها غالبا على حقول صغيرة لغرس بعض أنواع الخضر والفواكه تملكها الزاوية وتسهم في سد حاجيات المقيمين بها. وقد ذكر مؤيد العقبي العديد من الزوايا عبر ربوع الجزائر وأشار إلى طبيعتها التاريخية والاجتماعية (العقبي، 2002: ص 12).

وتعتبر الزوايا مؤسسات دينية واجتماعية، ومراكز ثقافية ونواد اجتماعية يتعلم فيها الناس مبادئ دينهم وتعاليم شريعتهم، وفيها يتلقون مختلف العلوم والمعارف ويطبقون العلاقات الاجتماعية والسياسية، (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998: ج 2 ص 18).

4. 1 الزاوية والوجود الصوفي

ولا يمكن بأية حال من الأحوال الجزم بجميع ما جاء من مواقع للزوايا من منطلق التواجد إلا إذا انفردت بعض الدراسات بوضع السمات التاريخية التي تؤسس للطابع الديني والاجتماعي لهذه الزوايا منذ تاريخ نشأتها إلى غاية الانطلاق الأول لما تؤديه من دور في واقعها الجغرافي والبيئي .

ثم إن السمة الحضارية التي تشكلت في دور الزاوية العلمي بدأت من الشيخ أولا، فللشيخ دور تربوي يتمثل في سماته الأخلاقية التي تلامس وعيه الصوفي سواء ما تعلق بشكله ولباسه أو ما تعلق بطريقة مشيه وجلوسه وحديثه مع عامة الناس وخاصتهم أو في حديثه مع مريديه وطلبته، وحتى في كثير من الأحيان في صمته وسمته وفي سماعه لمحاوره وفي الإجابة على بعض الأسئلة التي تطرح عليه وهذه غالبا سمة اتصلت بالشيخ وتعدت المريد من خلال السلوك ، ومن خلال الطاعات الظاهرة التي يصل أثرها غالبا على سلوك المردين: كل هذا يحدث على مرأى ومسمع من طلبة الشيخ، حتى يتسنى لهم فهم الطريق الذي يسلكه الشيخ في أحيائه للسلوك الصوفي وهي تلك العلاقة التي ذكرها محقق كتاب فتح الرحمن الرحيم بين عبد الكريم الجيلي ومحي الدين بن عربي وهي نفسها التي أشار إليها بهاء الدين بن إبراهيم البيطار (البيطار، 2010: ص07). وإلى نفس تلك العلاقة بين الشيخ والمريد والتي لها حضور كبير في التراث الصوفي واستمر إلى عهد قريب ما أشار إليه القشيري في رسالته حيث يبين مدى التوافق في السلوك بين الشيخ والمريد (القشيري، 1981: ص60).

وأیضا يتجسد الفعل الصوفي عند الشيخ لوضع رمزية الطريق، وبهذه الرمزية تأخذ الزاوية الرمزية التي جاءت لأجلها أو التي تدعو إليها ولا يتأتى ذلك إلا بالأوراد والأذكار التي يذكرها الشيخ بعد كل صلاة ويلقنها لمريديه، ثم هناك أذكار تتلى لأوقات معينة تعلمها الشيخ عن مشايخه السابقين، (زكي مبارك، (د،ت): ص79). وللعلم فإن الأذكار منها ما يتلى سرّاً ومنها ما يتلى جهراً، وما بين سرّيّة الأذكار وجهريتها أبعاد صوفية ومقامات لا يدركها إلا أهل الطريق في سلوكهم.

4. 2 الزاوية والبعد الرمزي:

ومن الإضافات التي لها علاقة بهذا التراث الصوفي أن الزاوية أسست لأهلها بعدا تشفيريا للنصوص، وهو ما يسمى بالإشارة، أو بالبعد الإشاري الرمزي، وعلى مبدأ الإشارة أخذ الفكر الصوفي ملامحه التي تفصله عن أي مدرسة دينية أخرى، متخذاً لنفسه بعدا مغايرا، فمثلا نجد النفري يقول في كتابه المواقف: "وجاء الموج ورفع ما تحته وساح على الساحل" (النفري، 1992: ص21). ويقول أيضا في مقام آخر: "الوقفة روح المعرفة، والمعرفة روح العلم والعلم روح الحياة" (النفري، 1992: ص24)،

فمثل هذه الإشارات المجسدة في وقفات النفري وغيره من أهل التصوف تطلعننا بلا شك على السلوكيات المجسدة لعمق المكان الذي يضفي على أصحابه قدسية التصورات الفكرية العميقة، وهنا نستطيع أن نربط بين الزاوية كمكان للانزواء والخلو

والابتعاد جسدا وروحا عن كل ما يلطخ صفاءهما، وبالتالي فإن هذا الصفاء ينعكس على النفس الإنسانية فيطهرها فترقى في التعبير عن البعد بهذا الأسلوب البعيد عن الشكل السطحي الذي يمنع من الوصول إلى مرتب الشمول المؤدي إلى المجاهدة والمكاشفة والمشاهدة .

أما مقام الرؤية فللزوايا في بناء أسسها وسيط في بناء الرؤية القادرة على تجسيد المفهوم الروحي المخلد للصورة الذهنية، فالوصول إلى مقام الرؤية أي رؤية الله الذي يحققه المكان يتم عن طريق مستويين، المستوى الأول طريق المجاهدة والتطهر من قيود الذات، والفناء عن الشهود الخلق والفناء في مشاهدة الحق، أو الوصول إلى شهود الأحدية ، أما المستوى الثاني الذي تحققه المكوث في المكان الأحدي للزوايا، وهو الوصول إلى طريق التحرر من قيود الجهل إلى الترقى لمدارج العلم ثم بعده إلى المعرفة. ونقطة البداية للسالك كما قال هيفرو محمد من أن نقطة البداية للسالك واحدة في الطريقتين تبدأ من قيود التحرر لتنتهي برؤية الله. (ديريكي، 2009: ص 161) ويمكن أن نجد ذلك بما يلي:

طريق السالك - الفناء في شهود الأحدية - القرب من الوجود الدائم - الوصول إلى الحضرة الإلهية

طريق السالك - الفناء عن شهود الخلق - البعد عن الوجود الزائل - الوصول إلى الحضرة الإلهية

إن الفناء في المشاهدة لدى ابن عربي هو تحقق من الخلوة واعتقاد في كينونتها، حيث يقول: "إن الحقيقة الإلهية تتعالى أن تشهد بالعين، وللكون أثر في عين المشاهد، فإذا في ما لم يكن فهو فإن ويبقى من لم يزل وهو باقٍ، حينئذ تطلع شمس البرهان لإدراك العيان فيقع التنزه المطلق المحقق في الجمال المطلق وذلك عين الجمع والوجود ومقام السكون والجمود فنرى العدد واحدا لكن له سير في المراتب فيظهر بسيره أعيان الأعداد ومن هذا المقام زلّ القائل بالإتحاد،" (ابن عربي، 1997: ص 15) وهذه الوقفات ضمن مقامات التصوف تجعل الباحث يعتمد على الجانبين الكتابي والشفهي، فالجانب التوثيقي وارد في العديد من المصنفات، ولكن الشفهي مهم في توثيق من خلال ما تناقلته ألسن الناس أبا عن جد.

5. الزوايا وحاضرة معسكر التاريخية :

هنا تظهر قيمة التراث الراشدي متجلية بقوة خاصة وأن الموطن الراشدي المتجلي في منطقة معسكر كحاضرة تاريخية وعلمية فإنها اشتهرت كمناطق تاريخية بمؤسساتها الدينية في أواخر العهد العثماني، وهذا بكثرة الزوايا وانتشارها في مناطق مختلفة منها، والتي حسب الإحصاءات كان عددها يفوق عدد المساجد، غير أن لها خصوصيات تختلف عن المسجد والرباط والمدرسة والمعهد، فلكل واحد منها خصوصية معينة، ولكن يجمع بينها الدور الريادي في عملية التهذيب والتربية وترسيخ روح المعرفة وتوطين القرب من الله وتجسيد الرابطة الروحية والدينية، ومن أمثلة ذلك المدرسة المحمدية التي أسسها محمد بن عثمان الكبير إلى جانب المسجد الأعظم على نسق وشاكلة المدرسة البوعنانية في فاس والمدرسة المستنصرية في تونس والقشاشية في الجزائر، (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: 1998 ج 1 ص 273)، وهذه المدرسة تأسست لنشر العلم في منطقة معسكر، وقد جهزها الباي

محمد بن عثمان الكبير بمكتبة عظيمة وقاعات للمطالعة وتلقي الدروس كما جهزها بمقرق للطلبة الداخليين وبقرها مطبخ وفرن ، وكانت منبرا للعلم على غرار ما كان يتلقاه طلاب العلم في الزيتونة والقرويين والأزهر. (ابن هطال، 1968: ص53). وقد جاء في مقال لعدة بن داهة يذكر فيه العديد من هذه الزوايا وبين دورها ومن خلال هذا هناك إشارات صريحة بمواقعية هذه الزوايا التي ساعدتها على القيام بدورها التعليمي والوعى التاريخي. (بن داهة، العدد 8 ديسمبر 2008).

ومنها زاوية أبي راس الناصر التي تقع في حي باب علي العتيق، وبالضبط في شارع الأمير عبد القادر من الجنوب. أسست هذه الزاوية أيام حكم الباي المشهور محمد الكبير، غير أنها لم تنل الشهرة كباقي المنشآت الدينية والتعليمية الأخرى، وبقيت على هذه الحالة إلى غاية حكم الباي مصطفى العجمي في ولايته الثانية، الذي أعاد بناء وتحديد هذه الزاوية ووسعها، حسب ما ذكره شيخ الزاوية "أبو راس" في كتابه "فتح الإله" بالإضافة إلى أن الباي محمد بن عثمان الملقب بـ "يوكابوس" (*) قام بتبويضها وترميمها في سنة 1227هـ الموافق لـ 1812م. ولما توفي العلامة أبي راس الناصر في سنة 1238هـ حوالي 1823م دفن بهذه الزاوية، وأصبح ضريحه علما على المكان.

6. أهم الزوايا بمدينة معسكر ونواحيها:

بحاضرة معسكر الكثير من الزوايا التابعة لطرق صوفية متعددة، بعضها يقع جغرافيا داخل المدينة وبعضها الآخر في القرى والمداشر التابعة للمدينة ، ومن أهم هذه الزوايا زاوية سيدي مخي الدين التي أسسها جد الأمير عبد القادر العلامة مصطفى بت مختار في منتصف القرن الثامن عشر بمنطقة القيطنة، وأيضا زاوية الدراويش التي أسسها الشيخ علي لعرج البنعلي في منتصف القرن التاسع عشر بدوار الدرويش قرب مدينة تيغيت التاريخية، وزاوية نجم الدين الحسني التي أسسها الشيخ المنسوبة إليه نجم الدين الحسني في منطقة الزلامطة التي تبعد عن مقر المدينة بثلاثين كيلومتر، وهي أيضا تأسست في مطلع القرن التاسع عشر، وأيضا على مسافة ثلاثين كلم بسيدي قادة تتواجد الزاوية القادرية لشيخ أحمد بعطوش وهذا في مطلع القرن العشرين، وعلى بعد سبعة كلم غرب مدينة معسكر تتواجد زاوية سيد أحمد بنعلي على اسم مؤسسها في القرن السادس عشر، وزاوية سيد أحمد بن يحيى لصاحبها سيد أحمد بن يحيى السليماني، وهذا في القرن الخامس عشر، وفي منطقة الكرط أربعة كيلومترات عن المدينة تتواجد زاوية المشرقي الشيخ سيدي يوسف بن عيسى الحسني، وزاوية سيدي قادة لأحد أجداد الأمير تنسب إليه، في القرن السابع عشر.

أما داخل مدينة معسكر تتواجد مجموعة من الزوايا منها زاوية سيدي بوسكرين للعلامة أبي زكريا في القرن الخامس عشر، وزاوية سيدي بن عبد الله لصاحبها سيدي بن عبد الله شنتوف بخي بابا علي أحد أحياء المدينة، التي تأسست في القرن التاسع عشر، وأيضا زاوية أبي راس الناصري في قلب المدينة أسسها صاحبها العلامة أبي راس الناصري في نهاية القرن الثامن عشر وكذا زاوية سيدي بو عمران الخلفي في منطقة بابا علي في القرن الثامن عشر، ومن الزوايا العصرية زاوية سيد البشير بمنطقة

المامونية حوالي أربعة كلم شمال المدينة. وكل هذه الزوايا كمثال فقط وغيرها مما لم يذكر توزعت في مدينة معسكر ونواحيها وشكلت منارات تحمل منهاجاً روحياً وتتبع سلوكاً متميزاً ولها أهلها ومريدوها وشيوخها اللذين يتعاقبون عليها كما لها عدد لا يستهان به من المريدين والطلبة .

ومهما يكن فإن التراث الراشدي العامر بالزوايا وأضرحة الصالحين والمقامات الروحية يجدر أن يدرس تاريخياً وجغرافياً بالاستعانة بالعلوم الحديثة كالطوبونيميا والطبوغرافيا لما لهما من أهمية بالغة في تسليط الضوء على هذا التراث الحضاري والتاريخي الممتد وسط هذه الحاضرة.

7. الخاتمة:

هذه محاولة في إطار التخصص الذي يهتم بالمعرفة الطوبونيمية وعلاقتها بالمسميات في إطار اللغة، حاولت من خلال هذه المحاولة مايلي:

- إبراز التصور الطوبونيمي لأسماء الأماكن والمواقع داخل الإطار الجغرافي لمدينة معسكر، مع العلم أنها هذه المسميات كلها مرتبطة بالجانب التاريخي والأثري للمنطقة، خاصة وهذه المسميات دلالات بعضها يعود لخصوصيات التسمية المتعلقة بالمكان وبعضها موثق تاريخياً، والبعض الآخر تحتفظ به خزائن الأرشيف.
- كذلك طرح تساؤلات موصلة إلى نتائج وهذه النتائج بدورها تطرح مرة أخرى تساؤلات تفتح مجالاً للاستزادة من البحث.
- التأكيد على أن البحوث المتعلقة بالتراث الراشدي العسكري خاصة بما يحويه من آثار علمية ودينية لا يزال البحث فيه غير منته، فالسعي دوماً إلى احتوائه والتركيز على ما فيه من معطيات جديدة، والبحث وجده كفيل بالإمام بجميع مقتضياتها ..

8. قائمة المراجع:

- ابن منظور محمد بن مكرم بن علي (1992)، لسان العرب بيروت دار صادر،.
- الأزمي، أحمد (2000). الطريقة التجانية خلال القرن التاسع عشر ميلادي، الرباط طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية الإسلامية،.

- بن شهرة، المهدي. (د. ت.) الطرق الصوفية في الجزائر السنية، الجزائر. دار الأديب للنشر والتوزيع،
- ابن عربي، محي الدين. (1997)، الرسائل، بيروت دار صادر.
- بن هطال التلمساني ، أحمد (1968) رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائر إلى الجنوب الصحراوي، القاهرة، عالم الكتب .
- البيطار، بهاء الدين بن إبراهيم، (2010)، فتح الرحمن الرحيم بمقالة القطب الجيلي عبد الكريم والختم ابن عربي محي الدين، القاهرة، دار الآفاق العربية.
- الجيلالي، عبد الرحمن. (1983)، تاريخ الجزائر العام، بيروت دار الثقافة .
- حجي، محمد. (1988)، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، الجزائر مطبعة النجاح الجديدة،.
- حرازم، سيدي علي. (2013) جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التجاني، القاهرة المكتبة التوفيقية .
- حسين، محمد خالد. (د. ت.)، حساب المثلثات المستوية، القاهرة مطبعة المعارف.
- ديريك، هيفرو محمد علي. (2009)، جمالية الرمز الصوفي، دمشق دار التلوين للطباعة والنشر والترجمة.
- زكي مبارك، (د. ت) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، بيروت ، دار الجيل.
- سعد الله، أبو القاسم. (1981)، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، (القسم الأول) الجزائر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- سعد الله، أبو القاسم. (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، بيروت دار الغرب الإسلامي.
- عزوق، عبد الكريم. (2014)، زوايا ومدارس الجزائر، دراسة أثرية معمارية فنية، الجزائر المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. نقلا عن الزهرة خواني(2016)، التوظيف البصري للتراث الشعبي كتاب سيدي خالد أتمودجا، مجلة دراسات فنية ، تصدر عن مخبر الفنون والدراسات الثقافية ، جامعة أبوبكر بلقايد تلمسان، المجلد الأول- العدد الأول، ص139-150، عن الرابط الالكتروني: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/136184>
- العقبي، صلاح مؤيد. (2002) الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر، تاريخها ونشأتها، بيروت، دار البراق.
- الفيروزبادي. مجد الدين (1983)، القاموس المحيط، ، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر.
- الفيومي. أحمد بن محمد بن علي (1996)، المصباح المنير، بيروت. المكتبة العصرية،
- القشيري عبد الكريم (1981) الرسالة القشيرية بيروت، دار الغرب الإسلامي،

- النفري، محمد بن عبد الجبار. (1992)، المواقف، ويليه كتاب المخاطبات، بيروت دار الكتب العلمية.
- عدة بن داهة ، (ديسمبر 2008)، النزعة الجهادية لطلبة العلم وحملة القرآن الكريم، في منطقة معسكر خلال العهد العثماني، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، المجلد 2 العدد 8. 160 /143
- عبد الصدوق إبراهيم، طرشاوي بلحاج (السنة 2017)، الموروث الشعبي كخلفية فكرية للقيم الجمالية والتعبيرية في العمل الفني ، مجلة دراسات فنية ، تصدر عن مخبر الفنون والدراسات الثقافية ، جامعة أوبكر بلقايد تلمسان، المجلد 2 العدد 1، ص 119-130, عن الرابط الالكتروني: <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/136194>